# مولود قاسم رجل الدولة مناضل القضية الوطنية وباعث المشروع الحضاري

**د. محمد العربي ولد خليفة**

نتوجّه في البداية بالشكر للمجلس الإسلامي الأعلى، على احتضانه لهذا الملتقى المخصص لدراسة جوانب من شخصية المرحوم الأستاذ مولود قاسم، والاهتمام بفكره، والتعريف بسيرته الغنية بالمآثر، ليبقى مولود الذي أخلص للوطن والإسلام والعربية، مثلما في ذاكرة الأجيال.

يحقّق هذا الملتقى الذي يجمع صفوة من أهل الفكر والذكر، ومن رفاق مولود ومريديه، الهدف الذي سعت من أجله الجمعية التي تحمل اسمه انطلاقا من بجاية جوهرة الصومام، وموطن العلماء الأعلام، ليأخذ مولود المكانة المرموقة التي يستحقها في السلسلة الذهبية من الرجال والنساء الذين وهبوا حياتهم لخدمة العقيدة والحق والفضيلة ورفعوا لواء اللسان العربي المبين إلى أعلى عليين، وانتسبوا بجدارة إلى السلالة النقية، في الوطنية الجزائرية التي جمعت بين مطلب الحريّة والاعتزاز بمقومات شخصيتنا الحضارية، والاجتهاد في تحديث الأصالة وأصالة التحديث.

لقد مضى حوالي 13 عاما على انتقال مولود المفكر أولا والوزير ثانيا إلى رحمة الله ورضوانه، وهي مدة كافية بالنظر إلى الوتيرة المتسارعة لنهاية قرن وبداية آخر، للتقليل من حجاب المعاصرة وتأثير العلاقات الشخصية مع مسؤول تولّى مناصب هامة في هرم السلطة، وتميّز بأطروحاته الفكرية الجريئة، وخطابه السياسي البليغ الذي يُسمي الأشياء بأسمائها بعيدا عن اللف والدوران.

من الطبيعي أن يكون لشخصية من **وزن مولود، أنصار** ومعجبون كثيرون، إلى جانب **معارضين ومناهضين** لمنهجه ومقولاته، فقد عاش الرجل ليُفكّر ويمارس تفكيره في حياته العملية التي كانت عبارة عن جدل بين مثالية يتوق إليها، وواقعية تتطلب نقد الذات والآخر، وتجديد الحاضر بالإرادة والهمة لتخليص شعبنا من التركة الكولونيالية الثقيلة في الأذهان والسلوكات، وتجاوز وضعية التخلف التي تكبل الأمة العربية والإسلامية وما نجم عنها من تبعية وتشرذم وانكسار.

مهما تعددت الآراء والأحكام على شخصية مولود وطريقته في التسيير والتعامل مع الشأن العام، فإن هناك ما يقترب من الإجماع بين من عرفوه عن قرب، وما تناقله الثقاة من الرواة، بأن مولود الوزير لم يكن مجرّد مسؤول سام في الدولة الجزائرية الفتيّة، فلم تكن الحظوة والأُبّهة من الأمور التي تشغله أو تستهويه، ولم تكن الامتيازات والألقاب الفخرية الرنانة أبدا مطلبه وغاية مسعاه.

لم ينس الفقيد وهو في مواقع المسؤولية من وزارة الخارجية إلى الوزارة التي أعطاها لأول وآخر مرّة بُعْدها الأوسع باعتبارها مركز إشعاع لتطوير

التربية والتكوين في علوم الدنيا والدين، أو في رئاسة الجمهورية وفي الأمانة الدائمة لحزب جبهة التحرير، **أقول لم ينس أنه صاحب مشروع وقضية.**

مشروع استمد منطلقاته من انخراطه في سن مبكرة في مدرسة الحركة الوطنية وفصيليْها الأكثر تجذُّرا في عمق الشعب الجزائري، وهما حزب الشعب وتسميته الأخرى: الانتصار، وقد تعلّم فيها فضائل الانضباط والنظام وضرب المثل بنفسه قبل غيره، وعدم التلهُّف على المناصب والمسؤوليات، والنهوض بها بتفان وإتقان إذا أسندت إليه، ونعرف أن تنظيم حزب الشعب وقائده مصالي الحاج قبل ضلاله أو تضليله، هو المؤسس الثاني للوطنية الجزائرية ومفاهيمها ومصطلحاتها بعد بطل الجزائر وقائد كفاحها الأول الأمير عبد القادر طيب الله ثراه.

أما الفصيل الثاني، وهذا الرقم ليس للترتيب والتصنيف، فهو منارة الإصلاح والإحياء: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومنهج وتعاليم إمامها الجليل عبد الحميد بن باديس الذي جمع بين الحكمة والحنكة في التعاطي مع قضايا السياسة والمجتمع والتواضع الذي زاده إجلالا بين رفاقه، ومصداقية واحتراما بين عامة الناس.

إذا كان حزب **الشعب القاطرة التي حركت** الشعب الجزائري نحو هدف **الحرية** والانعتاق من كابوس الكولونيالية وليلها الحالك، فإننا نرى بأن جمعية العلماء واستراتيجية رائدها ابن باديس هي **وقودها الروحي** الذي لا شيء يتحرك بدونه في جزائر الأمس واليوم.

في فصول المدرستين السابقتين نضجت شخصية مولود المفكر، وكانت الثورة وحرب التحرير التي تحتفي بلادنا هذه السنة بخمسينيّتها

الذهبية ساحة النضال الأولى، التي تجنّد في صفوفها، لا بل كانت شعلتها تضيء قلبه منذ إرهاصاتها الأولى في العشرية التي سبقت الثورة وخلال سنواتها السبع والنصف العظام.

في تلك الفترة ظهرت مواهب مولود، فتعلم لغات أقوام لم يعرف شيئا عنهم من قبل، فمن تعلم لغة قوم أمن شرهم، وبالنسبة لمولود "استفاد من خيرهم" أيضا، فكان مع المقدمة من النخبة التي كافحت في مقاعد الدراسة ومدرجات الجامعة أو غادرتها إلى مواقع أخرى على جبهة الكفاح الواسعة.

ما أن وضعت حرب التحرير أوزارها حتى تبين أن مولود المناضل في صفوف الثورة هو أيضا **رجل دولة ومؤمن بقضية**.

هو رجل دولة ينتمي إلى الجزائر كلها، ويرى ملامح جزائريته في كل بقعة من شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، وإذا كان رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم قد **سنّ أول بند تنفيذي في لائحة حقوق** الإنسان في حديثه الشريف: لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فإن مولود قد طبق **حديث من لا ينطق عن الهوى** فالقريب منه ليس من ذوي القربى والعرش والدوار بل هو الذي يتقن عمله برقابة من ضميره، ويُخْلص في عمله ويُشرِّف وطنه.

أليس الاجتهاد في أداء الواجب وتشريف الوطن والإعلاء من شأنه باب من أبواب التقوى؟ يدخله الذين يقولون ما يفعلون، ولا يفعلون إلا ما يقولون، أما الذين يرقصون على طبل الشعارات ويزايدون بالأقوال التي لا تؤيدها الأفعال، فلم يكونوا على الإطلاق من ملّة مولود، ولا ينتمون إلى

مذهبه في الحياة، ومفهومه للوطنية الفاعلة، وليس الوطنية الخاملة والمستفيدة التي هي في الحقيقة أشبه بصكّ بلا رصيد.

مثّل مولود في مساره الشخصي، وفي مختلف المسؤوليات التي أُنيطت به، الوطنية الجزائرية بخصائصها المزاجية المعروفة بشيء من الحدّة الانفعالية البريئة، والغضب السريع الذي لا يعقبه حقد أو طلب للثأر، والاعتزاز القوي بأمجاد الجزائر عبر العصور.

انطلاقا من ذلك الوعي والاعتزاز خطط مولود الوزير لإنجاز حلمه الكبير في مستهل السبعينيات مع المرحوم الرئيس هواري بومدين الذي ربطته به صداقة قديمة منذ السنوات العجاف، ومن شيم الصديق الوفاء.

حُلْم مولود الكبير هو إحياء التعليم الأصلي ذي التقاليد العريقة في جزائر الرباط والزوايا معقل المقاومة والحصن المنيع للقرآن والعربية لأكثر من مائة عام بعد الاحتلال وإلى اليوم، وتحديث ذلك التعليم، وكأنه توقع في لحظة إشراق وتأمل ما بدأ يلوح في سماء الجزائر من اختلالات وصراعات أشبه بالنار تحت الرمّاد، فمن يستهين بالمُعْطى الروحي في الجزائر القديمة والمعاصرة، يكون عن وعي أو غير وعي، قد غامر بها في مضيق العواصف.

ومن يزايد على الإسلام الراسخ في هذه الربوع، ويزعم أنه أكثر إسلاما من غيره وبيده مفتاح جنّة الرضوان، ينسى أنه في جزائر الجهاد الطويل والبطولي ضدّ الصليبية الحاقدة التي أساءت لتعاليم المسيح عليه السلام، وجهاد الملايين من الضحايا والشهداء من 1830 إلى 1962، وقد عبر بيرك (J.Berque) عن هذه الحقيقة إذ يقول عن الجزائريين: إن الإسلام هو

جنسيتهم الباقية والمصباح الذي أضاء ليلهم الحالك (N.obs, dossier n° 9, 1992)

إلى جانب بذرة التعليم الأصلي الذي أساء فهمه البعض، وتآمر عليه البعض الآخر، تمكن مولود في فترة قصيرة من تحقيق مشروع آخر وهو تنظيم ملتقيات الفكر الإسلامي التي حوّلت الجزائر إلى مركز للإشعاع الروحي والعلمي على مستوى العالم الإسلامي.

وقد لا حظنا ما كان يُحظى به العلماء من عناية واحترام، ومن بينهم بعض الأساتذة الذين درس عليهم مثل عثمان أمين وعبد الواحد وافي، وكان يسهر شخصيا على راحة آخرين جاءوا إلى جامعات الجزائر شبه متطوعين، ومنهم محمد عزيز لحبابي والأهواني ومحمود قاسم وأحمد بدوي رحمهم الله ومحاضرين آخرين من غير المسلمين أنصفوا الحضارة العربيّة الإسلامية وساندوا القضايا العادلة لشعوبها.

**هذا هو مولود المثقف، والسياسي المجرب، والدبلوماسي المحنّك.**

لقد كانت المؤتمرات السنوية ومجلة الأصالة، من المنابر التي تنافست فيها الآراء والاجتهادات من الجزائر ومن شتى أنحاء العالم، وهي اليوم صورة كاشفة عن جانب من التوجهات العامة للفكر والثقافة في جزائر السبعينيات، يمكن أن نتعاون مع المجلس الإسلامي لإعادة جمعها ونشرها، ليطّلِع عليها جيل ما بعد 1992.

في صميم المشروع الحضاري النهضوي لمولود قضية أساسيّة هي اللغة العربية التي سحره جمالها وثراؤها فغاص في بحرها وأتقن السباحة في بيانها، ودافع عنها في كل محفل، فهي في نظره سجل التراث الحضاري للشعوب

الإسلامية باختلاف لغاتها ولهجاتها، وهي بعد العقيدة الإسلامية الرابطة والعروة الوثقى التي جمعتهم في الماضي، وتجمعهم على مدى الزمان، فهي اللغة التي نزل بها الذكر الحكيم، وقد أقرّ كثير من التراجمة بأن القرآن يمكن شرحه وتفسيره بأية لغة أخرى، ولكن تلك الترجمات لا تساوي أبدا النص القرآني الأصلي وذلك من أسرار إعجازه.

لم يكن وراء غيرة مولود على العربية انغلاق فكري أو تَعصُّب مذهبي، فمن المعروف أن الفقيد متعدد الألسن وشغوف بالاطلاع على الثقافات التي تحملها اللغات الأخرى باعتبارها روافد تَصُبّ في النهر الأكبر، ألا وهو العربية بدون أن تُغيِّر مجْراه أو تُلوِّث مياهه بالدخيل والهجين، فهي من أقدم اللّغات المقوعدة وأكثرها مطاوعة أو قابلية للنحت والاشتقاق..

تتدفق العربية على لسان مولود مثل السيل العارم: مترادفات ومتقابلات وسباق **حثيث بين الأفكار والألفاظ** فهو تارة أقرب إلى أبى الطيب **المتنبي،** ينام عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم، وتارة أخرى أقرب إلى **الجاحظ** ونثره السهل الممتنع، وتارة ثالثة قريب من العلامة المرحوم: **البشير الإبراهيمي** في بلاغته الرائعة سواء أكتب أم ارْتجل الحديث، وفي كلتا الحالتين أبهر القارئ والسامع.

ترجع علاقة ابن "أقبو" بلغة الضاد إلى إدراكه في سنّ مبكرة للرصيدين التاريخي والشعبي للعربية في الجزائر، فشد إليها الرحال إلى تونس والقاهرة، حتى أصبح فارسها وعضو مجمعها الموقّر في القاهرة، والمؤسس الأول ورئيس المجلس الأعلى للغة العربية قبل حوالي عقدين، حيث لم تسعفه الأوضاع في أواسط الثمانينيات لتشييد ذلك الصرح.

تحدث عن تلك الأوضاع وفي حلقه غُصّة الأسد الجريح عندما التقينا في طهران سنة 1990، وقال رحمه الله متندرا تولّى أمر الجزائر الرجال الذكور فكان ما كان، فلماذا لا نجرب **دولة يسوسها النساء؟** واشتغلت إداراتنا بالفرنسية أكثر من ربع قرن والحصيلة ما ترى وتسمع بعد 1988 فلو جربنا **إدارة بالعربية** لا أظن أن الأمر سيكون أسوأ.

مولود فارس البيان، ومُخترع مُصطلحات شاعتْ بين الخُطباء والكُتَّاب مثل **الانبطاح** و**المركوبية** و**الاستدمار**..إلخ هو أيضا **أبو يوغرطة** الذي لا يرى تناقضا أو قطيعة بين اللسان الأمازيغي العريق وتراثه المحفوظ بين الرواة، والمتداول بين الناس في كثير من مناطق الجزائر، وبين العربية فلكل منهما امتداد في الآخر.

بالحرف العربي كتب القادة والعلماء والقضاة في الإمارات والممالك الأمازيغية "أوال أُمازيغ" في تعبير لحسن الوزان المعروف في الغرب باسم ليون الإفريقي (Leon l'Africain) منذ الدولة الرستمية إلى إمارة كوكو من عين الحمام، في جبال جرجرة الشماء وإلى عهد قريب.

يعرف أبو يوغرطة سليل زواوة أن فرنسا الكولونيالية استخدمت وسائل القهر والإخضاع إلى جانب حيل الخداع والاستهواء لتقسيم المجتمع الجزائري وزرع بذور الفتنة بين الأهالي أو من تسميهم "الأندجين" للسيطرة عليهم والقيام بدور الوَصيّ الأبدي والحَكَم المشبوه، فلم يكن في المنطقة قبل عدوانهم على بلادنا سنة 1830 قبائل صغرى وكبرى ولا وجود إطلاقا للتمايز بسبب اللغة أو العرق.

الإسلام جامعهم الأول، والعربية لسان ثقافتهم المشتركة، وقد خصص ش.ر.أجرون فصلا مطولا في كتابه "**المسلمون الجزائريون وفرنسا**" تحت عنوان: "**السياسة القبائلية**" نقلناه إلى العربية في كتاب تحت عنوان: "**المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية: مقاومة القبائل للإدماج والتفكيك وفشل مشاريع التنصير والتجنيس**" أوضح الباحث بموضوعية ما وراء عناية الإدارة الكولونيالية باللسان والتراث الأمازيغي في الجزائر عموما، وفي القبائل بوجه خاص، من نوايا وأهداف شرّيرة، ومن المؤسف أن كثيرا من ذلك التراث المغشوش لا يزال معتمدا لدى البعض منا إلى اليوم، تحت إسم الإثنولوجيا والإثنوغرافيا والإنديجونيفيليا، وفيها القليل من العلم، والكثير من سموم فرّق تسد.

العمق الحقيقي لمنطقة القبائل هو شبكة الزوايا المترامية الأطراف والمعمرات أو كتاتيب تعليم القرآن والعربية والتي تربى فيها أبو يوغرطة واستظل بأشجار تينها وزيتونها، تلك المنطقة التي خصّها المرحوم الأستاذ العصامي محمد الصغير فرج بكتابه تاريخ تيزي وزو الذي ترجمناه في المجلس وكرّمه فخامة رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة في الملتقى الذي افتتحه بتيارت سنة 2002 عن مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية.

هذه لمحة خاطفة عن مولود الذي تعرّفْتُ على البعض من خصاله في ملتقيات الفكر الإسلامي في حقبة السبعينيات، وهو يشرف وينظم ويحاضر، ورأيته يترنح تأثرا ونشوة، وهو يستمع إلى ملحمة **عملاق الشعر** الوطني والثوري **المرحوم مفدي زكريا** طيب الله ثراه، وحاورته في مستهل الثمانينيات

في أروقة اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني، والجزائر مقبلة على تحولات ما بعد البومدينيّة، وجمعت له سفراء البلدان العربية والإسلامية في طهران بحضور نخبة من أساتذة دانشَكَاة فاطمة الزهراء، وحضر قسما من الحوار الرئيس الإيراني الحالي الذي كان وزيرا للإرشاد الإسلامي، وقد **ناظر الفقيد** وحاور **بأربع لغات** ولأكثر من خمس ساعات، وأبهر الجميع بقوّة حجته وسرعة بديهته وأطلاعه على آخر مستجدات السياسة الدولية.

مولود صاحب المشروع الحضاري المؤمن بالقضية الوطنية والمتحمس لإيقاظ العالم العربي والإسلامي من ركوده وسباته الطويل هو أيضا مولود المدافع عن الاستمرارية التاريخية للدولة والمجتمع الجزائري عبر القرون بلا انقطاع ولا قطيعة مع أية مرحلة.

لقد جمع الفقيد في مقارباته الفكرية وخطابه السياسي بين التعلق بالإنية والأصالة وضرورة التطور والتفتح على ما يجري في عالم لا يرحم الضعفاء والكسالى، وأعطى **الأصالة مفهوما متحركا** أو ديناميكيا فالسكون في رأيه موت وفناء، والتفتح يبدأ من الأصالة ويعود إليها ليثريها.

إن الشعب الذي ينفصل عن ماضيه وتراثه هو شعب يحتقر نفسه ويصبح حتما ذيلا لغيره.

مولود هو "فيخته" الجزائر نقرأ في أفكاره وأسلوبه ما يشبه رسائل "فيخته" إلى الأمة الألمانية وفلسفة التاريخ عند "هردر" وقبل المفكرين السابقين فإن ذخيرته الحيّة هي الدروس التي استلهمها من تراث المقاومة والثورة.

من الوفاء لمولود المفكر ورجل الدولة، أن ندعو لإنشاء **رابطة أو مؤسسة** تعنى **بفكره وتراثه** في عاصمة الجمهورية، ونوصي **بدراسة**

**مؤلفاته** في كليات العلوم الاجتماعية والشريعة وأصول الدين، فنحن نرى أن علم **الاجتماع الديني متخلّف** جدا في بلاد العرب والمسلمين.

وعلى الرغم من أن العلم الحقّ ليس له جنسية، فإن علوم المجتمع ليست من العلوم الصحيحة، ولا تخلو نظرياتها من الإيديولوجية، **ولمولود الباحث موقف ووجهة نظر تستحق الدراسة**، وربما **النقد والإثراء**، فهو نفسه **يكره التقديس الأعمى وبني "وي وي"**.

وفيما يخصّ مجلسنا الاستشاري فإننا على استعداد لتحضير ملتقى آخر عن **جانب من فكر مولود** وذخائر تراثه، وسوف تحمل **قاعتنا المخصصة لمنبري: "حوار الأفكار" "وفرسان البيان"** إسم **مولود قاسم** نايت بلقاسم، وفاء لذكراه، وعرفانا لجهوده، وإخلاصه للوطن والإسلام والعربية.